

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 15 (2011) : 220 - 230
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

العمارة الصحراوية وأنماطها الاجتماعية
(دراسة سوسيو أنثروبولوجية)

مريم لمام باحثة
المركز الوطني في الانتروبولوجية الاجتماعية و الثقافية وهران

تعتبر الصحراء الجزائرية رابط بين العالمين الإفريقي والمتوسطي دون إسقاط دورها الجيو استراتيجي في عالم يشهد العديد من التحولات العميقة، ولا يقتصر الموضوع على مسائل التهيئة الإقليمية فحسب بل يشمل أيضا الممارسات الثقافية، التمثلات الاجتماعية وقضايا أخرى متعلقة بالبيئة.لقد شهدت المدن الصحراوية نموا متميزا رغم الفوارق المجالية ومسَ مركبات مختلفة(امتداد تنوع في الأنشطة، سكن، حياة اجتماعية، مبادلات...الخ) والتي تتطلب معالجتها من خلال دراسة حالات مثلها مثل التحولات في العالم الريفي (الواحات، المستثمرات التي أنشأت عن طريق الاستصلاح، السكن الريفي..) وهناك تغيرات أخرى عديدة ومتنوعة كالتغيرات الديمغرافية، الاقتصادية والاجتماعية لها انعكاسات كبيرة في الأوساط الريفية والحضرية والتي من المهم حاليا قياس آثارها السلبية على البيئة وخاصة في الأوساط الجافة والهشة، واشتراك السكان المحليين في التنمية يبقى متباينا بتباين الأقاليم والتاريخ والأشخاص الذين قاموا بتهيئة الفضاء خلال قرون خلت. إن هذه المجموعات الاجتماعية محليين أو رحل انصهرت عبر الزمن وتشكلت من خليط من الأعراق واللغات والأعراف والطقوس والمعرفة، وأنتجت بيئة خاصة تحددها وتميزها عن باقي المناطق[1].

الإنسان مخلوق اجتماعي لا يستطيع العيش منعزلا عن الناس، فالحياة الاجتماعية خبرة مشتركة تقوم على التعاون والاجتماع، غالبا ما صنّف الانتروبولوجيون على أساس معايير ثقافية ووسائل معيشية وهي تختلف من مجتمع لآخر، فالعادات، التقاليد، المعتقدات، الممارسات اليومية، طريقة البناء، النسيج، الصناعة الفخارية، الطرز على الجلد، الرقص، الحكايات الشعبية والشعر الملحون وغيرها من الفنون أوجدها الإنسان ليعبر عن ذاته وحتى ليميزه عن الآخرين لتنتج في قالب الهوية التي تحدده، هذه المجتمعات لا يمكن فهمها إلا إذا وضعنا هذه الحقيقة وما ينتج عنها من حقائق في الاعتبار. ثم إن طبيعة العمران وأشكاله تتحدد حسب أسلوب العيش الذي يتخذه أي مجتمع محلي سواء كان حضريا أو بدويا، والنسيج العمراني يعتبر هذا المفهوم من الخلايا

المتضامنة والفراغات من العناصر الفيزيائية (الموقع، الشبكات المختلفة، الفضاءات المبنية الأبعاد، شكل ونوعية البناء والعلاقات التي تربط بينهما.يرتبط مفهوم النسيج العمراني بالمرفولوجية العمرانية (تحليل الهياكل الفضائية) كما ترتبط عموما بإدراك السكان وخصائص الإطار المبني ويتخذ شكلا ثابتا مثل حالة الأشكال العمرانية خلال فترة معينة وقد يتخذ ديناميكية لإمكانية تطور نمو هذه الأشكال. والقصر المتواجد بالجنوب والتي امتازت به المناطق الصحراوية على اختلاف مواقعها الجغرافية ونمط سكانها، يعتبر الميزة الرئيسية لسكان الجنوب، حيث يتألف القصر عادة من وحدات سكنية، أحياء، حارات، محلات وقد يكون مؤلفا من مجموعة القصور أو القصبات، لها حدائق مشتركة وقد تكون الأحياء منفصلة عن بعضها البعض بواسطة سور له باب يفتح في وقت السلم ويغلق في وقت الحرب وهو محاط بالنخيل.[2]

ومن هذا المنطلق يمكننا أن نتساءل:

ماذا يمثل القصر من حيث البناء الاجتماعي؟ هل يعتبر القصر وحدة ترابية أم يعبر عن خلفية قرابية؟ ما هي الأبعاد الأساسية للقصر كطابع عمراني؟

إن شكل القصر وتنظيمه الداخلي أمر يفرضه الموقع الجغرافي أكثر مما تفرضه عوامل أخرى، قد تكون بيئية جغرافية وقد تكون اجتماعية وقد تكون ثقافية، المهم أن يكون شكل القصر محلي يتميز به أهل المنطقة، والحياة داخل القصر تحمل وظيفة اجتماعية إلى جانب االوظيفة السكنية، وتؤدي إلى خلق وعي سكاني وتفاعل بين السكان من خلال اقتسام العادات والتقاليد وتبادل الخبرات والمعارف، الاشتراك في المعتقدات والدين أي المقدس.هذا الوعي بالأرض البيئة والقصر، المجال، السكن والحركة، هذا يعني أنه إذا خلت المدينة من هذه الوظيفة تحولت إلى حشد من الناس لا تربطهم حتى علاقات الجوار وما يصطحبها من مضاعفات.

لقد قطن الإنسان الصحراوي منذ القديم ونظرا للظروف القاسية في الصحراء، فقد استطاع التأقلم وذلك من خلال إنشاء المدن ذات طابع خاص ومميز والذي يشمل أساسا في القصر أو المساكن التقليدية والواحة وهذا ما يميز المدينة الصحراوية عن الشمال الجزائري، وإنه لمن الصعب إعطاء تعريف دقيق للعمران لكونه العامل الذي يشمل الدراسة في عدة مجالات من الحياة البشرية لغاية الوصول إلى تناسق استخدام واستغلال المجال بجميع مكوناته من أجل خدمة وتوفير الراحة للسكان ويمكننا إعطاء عدة تعار يف منها أنه العلم الذي ينظم المدن عن طريق دراسة المفاهيم التي تسمح بتكييف مساكن هذه المدن وفق حاجيات البشر بالاعتماد على مجموعة من التدابير الاقتصادية والاجتماعية والبشرية، والعمران هو فن تهيئة المدن من أجل توفير ثلاث عناصر أساسية : السكن، العمل، الراحة ويمكن تلخيصه في البعد العمراني في الهندسة المعمارية.

والعمران بمثابة النافذة المفتوحة على حضارة الشعوب ويعتبر كأداة للتعبير الفكري والثقافي الحضاري كما يحدد إطار النمط الحياتي وكيفية تنميته من جميع النواحي، ولكل مجتمع حضارته التي تتمثل في قيمه العليا والتي هي غاياته، أما المدينة فهي وسائله وتطبيقاته في واقع الحياة، فالعمران والأسس العمرانية السليمة هي التي تستمد أصالتها من بيئتها فلكل مجتمع عاداته وتقاليده وبيئته الخاصة، والمدن الصحراوية هي مرآة عاكسة تعكس الوجه الحقيقي للمدينة العربية الإسلامية بما تحتويه من قيم اجتماعية تستمد جذورها من تعاليم الدين وما اقتضته الظروف المناخية وتلبية متطلبات وحاجيات المجتمع.و قد تبدو المدينة الإسلامية كنسق بين أجزاءها ونسق وظيفي متكامل ذات تركيبة عمرانية نلمس بها الانسجام التام بين جزئها وكلها وفق التدرج الهرمي، انطلاقا من الوحدة البنيوية الأساسية المتمثلة في الدار إلى وحدة الجوار ثم الحي وأخيرا المدينة.فالوحدة الأساسية الدار تشكل واجهة مستترة على الفضاء الخارجي، وبتجميع هذه الدور تنشأ وحدة جوار بفراغها الخاص المتمثل في الدرب ومن مجموع الوحدات يتكون الحي الذي يشترك في فراغ خاص يسمى الرحبة بمثابة مركز لهذا الحي، وهذا الكل يمكن اعتباره كمدينة مصغرة، وهي مبنية على **communauté** المقصود بها الوحدة أو جمع اجتماعية في العضوية بالمشاركة في الأدوار والمعرفة من خلال الروابط القوية في العضوية في مختلف الوحدات.[3]

خصائص المدينة الإسلامية:

تمت إقامة المدن على أساس متطلبات الإنسان الأساسية ويعكس القيم الاجتماعية والمؤثرات الثقافية التي جاء بها الإسلام، وأردنا دراسة مثل هذه المدن لأنها تشترك في عوامل كثيرة إضافة إلى المناخ والتي منها:

العضوية: إن المدينة تتأثر بسكانها أنها تحمل المجتمع المسلم كالجسد الواحد المترابط الأعضاء والمتكامل الوظائف، وهي تتكون أساسا من ثلاثة عناصر تتمثل في:

المركز: وهو الجامع الذي يمثل قلبها النابض وله دورا في توحيد الأعضاء كما يقوم باستقطابها وهيكلتها وتنظيم حركتها.

الأحياء: وهي بمثابة جسدها الذي يستمد منه المركز طاقته وضرورة وجوده وماهيته.

المسالك والأزقة: هي بمثابة الشرايين التي لا تتم الحركة إلا بها وتقوم بإيصال الأعضاء مع بعضها البعض وهكذا تبدو لنا كالجسد الواحد.أما الوظيفية كمنظومة اجتماعية لكل عضوية فيها دور نجدها كذلك تتوزع فيها وفق هذا التقسيم فالمركز مثلا والمتمثل في المسجد الذي يقوم بالوظيفة الدينية والإدارية والمصالح ذات الطابع الجماعي، أما المسالك وظيفتها الاتصال والربط بين الأجزاء، وأما المحيط هو ما جاور المدينة حيث تكون الأسواق والمجالات الحيوية بوظيفية الشغل والعمال.

الأنماط المعمارية في العمارة الصحراوية:

إن الأنماط المعمارية على مر العصور كانت دائما انعكاسا صادقا للبيئة الحضارية التي كانت تسود كل مرحلة من المراحل التاريخية المتلاحقة، ومن قديم الزمان أقيمت مدن على أطراف الصحراء حيث ساعدت البيئة الحارة بظروفها الطبيعية والاجتماعية على خلق نمط معين متلائم معها، فقد ساعدت البيئة الحارة على توجيه الإنسان في الداخل سواء كان للحي أو المسكن أو في المدينة ككل حتى يتوفر عامل الحماية من الظروف المناخية.و لقد ظهرت التشكيلات المعمارية على مستوى التخطيط بصورة عضوية وتلقائية دون الارتباط المسبق باعتبارات تشكيلية أو معمارية معينة، وبذلك أصبحت العمارة التقليدية تعبر بصدق عن الوظيفة والبيئة الطبيعية والاجتماعية السائدة، وقد استطاعت هذه العمارة التوصل إلى حلول معمارية سليمة كفيلة بتحقيق الحماية من العوامل الجوية شديدة القسوة، فظهرت المباني الملتحمة أو شبه الملتحمة في نسيج عمراني ملتف مما يوفر أكبر مساحة مظللة، ويعتبر تكامل الفراغات وتداخلها من أهم القيم التخطيطية والتصميمية للعمارة التقليدية وخاصة في المباني السكنية، ويعمل هذا التخطيط العضوي على الحد من تعرض مكوناته المختلفة كالمسكن والشوارع والممرات إلى قدر كبير من المؤثرات.

القصر مرتبط ارتباط وثيق بالجانب الفلاحي تحيط به بساتين خضراء لتزويد السكان بما يحتاجونه من موارد وحمايتهم من الزوابع الرملية، ويكون دوما قريبا من المجاري المائية ويتمركز على قمم الجبال أو على سفوحها أو على هضبات صخرية صلبة، ونعني به تجمع بشري قد ينتسب القصر إلى ولي صالح باعتباره مؤسس القصر، أو يرجع إليه الفضل في لمّ شمل سكانه، أو ينتسب إلى الجهات الجغرافية مثل القصر القبلي (الجنوبي) أو الظاهري(الشمالي)، وأحيانا ينتسب إلى لون مادة بناءه أو إلى القبيلة التي تقطن فيه، كما ترتبط تسميته كذلك بقدمه أو حداثته(قديم جديد) أو بحجمه (كبير، صغير) أو بموقعه(فوق، تحت)[4].

يتكون القصر معماريا من:

الأسوار: فكل قصر محاط بسور مزود بأبراج وتفتح فيها مداخل تغلق بواسطة أبواب خشبية ضخمة. الأحياء: توزع حسب الانتماء القبلي وأحيانا تحاط هي كذلك بأسوار بها أبواب تغلق في حالة حدوث الفتن بين القبائل وكل حي يحتوي على مصلى.

المسجد: الذي يسمى بالجامع الكبير أو العتيق وغالبا يتوسط القصر وتقام فيه صلاة الجمعة وصلوات الأعياد الدينية كما يستخدم أحيانا كمدرسة قرآنية.

لكل مدينة طابعها العمراني مما يجعلها تختلف عن بقية المدن، المقصود من الطابع الحضري هو مجموعة الصفات المركبة التي تميز مدينة أو مكانا بذاته، والتي تميزها في علاقاتها

مع الموقع والتاريخ، ويساهم الطابع الحضري في تحديد هوية المدينة ويسمح بتناول مسألة النوعية الحضرية ومميزاتها. هذه المميزات أحدث الأزمة الحضرية الحالية وهناك بعدان أساسيان للطابع العمراني

البعد المادي: الذي يعتمد على المكان والبيئة والمحيط ومن ناحية أخرى البعد الثقافي الحضري الذي يضم المجتمع والأنشطة والسلوكيات وغيرها

البعد الاجتماعي: **aspect sociale**

يقول: "سروكن" أن علم الاجتماع هوالعلم الذي يدرس الثقافة الاجتماعية وقد دعاه هذا لأن يقول: أن الحقيقة الاجتماعية ذات ثلاثة أبعاد متداخلة لمجتمع الثقافة الشخصية، السلوك الفردي، فالمقصود بالبعد الاجتماعي هو دراسة التأثيرات والعلاقات الاجتماعية المتبادلة الناتجة عن كون الإنسان كائن اجتماعي لا يستطيع العيش إلا في الجماعة، وهو يقضي معظم وقته بهم ولا علاقة معهم، وطابع الإنسانية يعود إلى مشاركته في المجتمع ومساهمته في تيار الحركة الاجتماعية لكل مقوماتها الثقافية من عادات وتقاليد ودين والتي تكسبها من المجتمع[5].

البعد الثقافي: هو صياغة النظام الاجتماعي والاحتفاظ بوجوده استنادا إلى الاعتراف بالخبرات السابقة وتراث الماضي الذي يزودنا بأنماط السلوك ونماذج الفعل الإنساني فأسندت الحياة الثقافية الاجتماعية إلى ثقافتين أساسيتين: ثقافة مادية: من جهة تنسق التكنولوجيا والاقتصاديات.ثقافة لامادية: كالقيم والمعتقدات والأخلاق.

أما الدور هي المركب الثالث لمعادلة المحافظة على التراث المعماري وذلك أن الشعوب تحرص على تتابع قيمها وانعكاساتها في البيئة العمرانية، وتبحث الأمم عادة على السبل الكفيلة لتتابع القيم الحضارية الاجتماعية وتحرص على إيصالها للأجيال القادمة بأمل أن تبنيهم لها لذلك ينبغي تحقيق معيار الاستمرارية في القيم الإنسانية اتجاه البيئة العمرانية.لعلها من الأسباب التي جعلت العمارة المعاصرة في بلادنا تعاني من أزمة متعددة الجوانب لا حصر لها، إن لم تستثن أحدا من عناصرها الثلاثة التي حددها فيتريف **Vitriv** قديما نذكر بالمناسبة وهي المتانة، المنفعة، الجمال، انها القطيعة مع التراث المعماري الذي مهدت خلال حقبة فراغ رهيب إلى ظهور وانتشار إنتاج مقطوع الصلة مع الأنماط التقليدية المحلية متمثلا في نماذج دخيلة وهجينة تحت مبررات شتى قد تكون باسم الحداثة[6]. غير أن العمران في المدن الصحراوية له خصوصيته التي تميزه وتجعله متفردا بالنسبة لعمران المدن الشمالية، وهذا نظرا لاختلاف البيئة بمفهومها العام، ومنها الموقع، المناخ، البيئة الاجتماعية والثقافية للسكان وغير ذلك من العوامل المؤثرة المختلفة.و تعتبر المعرفة الواسعة والكافية بالبنية العمرانية والمعمارية لأي مجتمع من المجتمعات من المتطلبات الجوهرية لاستكمال أية دراسة انتروبولوجية لأي جماعة محلية لأنها تشكل إحدى

الجوانب الأساسية للبناء الاجتماعي، وهكذا نجد أن البنية الاجتماعية تتصدر من ناحية الصور التي يتجمع فيها الناس لأغراض اجتماعية معينة في مجتمع معين، كما نجد أن المباني المنظمة تنعكس في سلوك الأفراد تجاه بعضهم البعض واتجاه كل المجموعات الاجتماعية التي ينتمون إليها.فالعمارة ظاهرة اجتماعية حيث يوجد عاملان أساسيان في كل وضع فني هما: كمتطلبات الجماعة المنظمة وإرادة الفنان باعتبار العمارة رمزا اجتماعيا، ولفهم الرمز يتطلب منا فهم التفاعل ذلك أن العملية التصميمية للمعماري هي نتاج احتياجات وظيفية ومبادئ جمالية ومعاني رمزية واجتماعية معينة وبالتالي فالفعاليات الحياتية والممارسات الاجتماعية تبقى خلفية أساسية لتلك الصورة المادية للعملية التصميمية.فالعمارة امتداد للعلاقات الاجتماعية ودور الفرد في الإنتاج المعماري ضمن الحدود التي ترسمها بصورة أو بأخرى تصورات الجماعة، فالعمارة انعكاس لصورة ثقافية تمثل هذا المجتمع أو ذاك تجسدها الخبرة المهنية والقدرة الإبداعية للمعمار كما أن ارتباط العمارة بالمجتمع يتضمن علاقتها بالدين والثقافة، فالدين منذ القدم كان رابطة اجتماعية وثيقة تجمع بين الناس والمعابد ومنها المساجد التي كانت أماكن للاجتماعات وممارسة الشعائر الجماعية، وقد أثبت أب السوسيولوجيا إميل دوركايم أن العمارة رمزا اجتماعيا، ولفهم الرمز يتطلب منا فهم التفاعل ما بين شكله المادي ومدلولاته الاعتبارية الجمعية، والتي تمثل العمارة نماذجها الأساسية .لقد طرح باحثون موضوع الفضاء السكني أو البيت بأنه عبارة عن مؤسسة مشكلة من مجموعة التشكيلات، المعتقدات، التصورات، المخيال، رموز .ليس بنية وشكل فقط بل له بعد انتروبولوجي انطلاقا من قول آموس رابوبور A.Rappoport أن البناء أو التعمير لم يكن ولن يكن اختصاص المهندس المعماري لكنه عبارة عن محيط مبرمج ومهيكل تقريبا عن طريق الثقافة الشعبية أو الفلكلورية وقد تغافل عنها التاريخ.[7]و حسب فكرته أن الفضاء السكني موظف حسب الحاجات الأولية بالخصوص والحاجات الأساسية ثم يأتي الذوق الجمالي إذا أمكن، ولقد اهتم الباحثون بالفن والموسيقى ومحيطها الاجتماعي منذ القديم، أما الاهتمام بالعمارة والبيت الذي يعرفنا بثقافة السكن الشعبي البسيط مهمل من طرف بعض الدراسات، فالتشكيل الهندسي للعمارة والتقاليد الشعبية ما هي إلا ترجمة مباشرة وغير شعورية لثقافة هذا المجتمع .فالساكن يتخذ من فضائه السكني مجموعة ممارسات رمزية تجعل من هويته مسألة جماعية كم يؤكد ذلك P. Bourdieu في دراسته عن منطقة القبائل في الجزائر .يأتي في هذا المنحنى (إبراهيم صادق) الذي جاءت دراسته من منظور سيماتي أن الشكل المعماري في نظره هو ترتيب لنسق من الرموز والإشارات يشملان عناصر الفضاء العام وعناصر الشكل المركب، عناصر التناسب، وبالتالي في العمارة لغة وأداة للتواصل بين ساكنيها، وإذا رجعنا للباحث الكبير في ميدان العلوم الاجتماعية P. Bourdieu[8] ندرك الأهمية البالغة التي أولاها لدراسة المسكن في أعماله البحثية من حيث كونه ظاهرة انتروبولوجية تجسد ثقافة الفرد والمجتمع على حد سواء، عند

مقاربته للمجتمع القبائلي وتوضيحه للممارسات الثقافية داخل الفضاء التي تعني لديه كل عمليات ترميز (عادات تقاليد وقيم) التي تنتجها المجموعة الاجتماعية الشاغرة للفضاء، وإن هذه الممارسات تعتبر نظاما يحدد مرجعية الجماعة وانتماءها، وأن الفضاء السكني مقسم إلى قسمين : قسم خاص بالمرأة ويسميه الفضاء النبيل وقسم خاص بالرجال، وأن البيت القبائلي مكوّن من دروب متوجهة نحو الداخل الذي يحمي الحرمة، يتمظهر ذلك في انتشار نمط السكن الجماعي على حساب السكن الفردي وهذا راجع لطبيعة البناء الاجتماعي.فالعمارة ظاهرة اجتماعية حيث يوجد عاملان أساسيان في كل وضع فني هما:متطلبات الجماعة المنظمة وإرادة الفنان باعتبار العمارة رمزا اجتماعيا ولفهم الرمز يتطلب منا فهم التفاعل ذلك أن العملية التصميمية للمعماري هي إنتاج احتياجات وظيفية ومبادئ جمالية، معاني رمزية واجتماعية معينة، وبالتالي فالفعاليات الحياتية، الممارسات الاجتماعية تبقى خلفية أساسية لتلك الصورة المادية للعملية التصميمية[9] ونفس الشيء في العمارة الصحراوية، حيث نجد أن سكان القصر محافظين جدا حيث نلمس أماكن خاصة بالرجال وأخرى بالنساء ولا يوجد نوع من الاختلاط تحت ما يسمى (الحرمة). ونفس الشيء بالنسبة للمجتمع المزابي وهذا ما ذكره الباحث إبراهيم بن يوسف عند دراسته للبيت المزابي[10] رأى أن تهيئة البيت المزابي مرتبط بالحرمة، هته الأخيرة التي تتحدد من خلال التقسيم الفضائي حسب الجنس، ففضاء الحرمة خاص بالمرأة ويضم قاعة للضيوف يستقبل فيها النساء فقط، كما أن هناك فضاء خاص بالرجال يلجأ إليه رجال البيت عند حضور رجال أجانب، وفضاء مركزي الأكثر حيوية والأكثر استعمالا يتموضع في مكان منعزل أين يوجد المطبخ وفي هذا الفضاء يقمن النساء بحرفة النسيج، أما مدخل البيت فهو منفصل عن الفضاء المركزي كل ذلك يعبر عن الحميمية داخل الفضاء السكني .فطبيعة العمران وشكله تتحدد حسب أسلوب العيش الذي يتخذه أي مجتمع محلي سواء كان حضريا أو بدويا فكما يقول ابن خلدون (اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو اختلاف نحلهم من المعاش) ففي ضوء نمط المعيشة ترتسم أشكال العمران، أنواع السكن وأنماط الإقامة، التوطن أو عدم الاستقرار.نفس الشيء بالنسبة للباحث عبد الرحمان موساوي حيث يقول (على عكس النظرة الجغرافية المنتشرة بين مؤرخي المنشآت الإنسانية، المدن ليست دائما المنطق الفيزيائي وإنما هي غالبا نتاج معتقدات ومواقف روحانية، وعلى منوال هذه الأفكار أين المعطى الانتروبولوجي الأكثر حضورا في التنظيم المجالي، وهذا ينطبق على السكن القصوري في الجنوب الغربي الجزائري حيث منطق البناء والتنظيم المجالي يخضع لمحددات وتأثيرات أكثر من تأثيرات ومحددات الجغرافية والتكنولوجية، هي القداسة والدم كقيم سيميولوجية ومعطيات أسطورية. كما أن سكان القصور الصحراوية يعتمدون على الروابط الاجتماعية، وهذه الأخيرة هي الأشكال من العلاقات التي تربط الفرد بالمجموعات الاجتماعية وبالمجتمع، والتي تسمح له في نفس الوقت بأن يكون اجتماعيا وأن يندمج في

المجتمع[11] وقد تتمثل هذه الروابط في العلاقات التقليدية السائدة بالمدينة، وقد يكون الزواج القرابي على أساس أنه يمثل نوع من الارتباط والتلاحم بين أفراد العشيرة والقبيلة وكذا الأسرة والعائلة، والممارسات التقليدية التي تحافظ على الروابط المشاركة في الطقوس والمناسبات التي لها امتداد في عمق المجتمع التقليدي، وكانت أحد أهم هذه المنظمات الطرق والزوايا الصوفية، إلى جانب المناسبات وأكثر المناسبات التي تمثل فرص لالتقاء الأسر بذويهم هي المناسبات الدينية والاجتماعية، إذ تعتبر فرصة لربط العلاقات بينهم والمحافظة على الحياة الاجتماعية بالقصر، وكل هذه الروابط مساهمة بفعالية بالمحافظة على هوية العمارة الصحراوية وكذا إعطاءها صبغة مميزة لهذا البيئة الاجتماعية دون غيرها من المجتمعات.لم تبنى هذه المدن والقصور نتيجة لرغبات شخصية بل وجدت وازدهرت لضرورات حضارية آنذاك أنشأت هذه القصور من طرف القبائل الرحل التي كانت تعتمد على طرق تنقل منتظمة ما بين عمق الصحراء ومدن الساحل والتي بدورها ساهمت في ازدهار وتطور المدن الصحراوية.

علاقة العمارة بالخصوصية الثقافية:

يعتبر السكن الاجتماعي والعمران من الخصوصية الاجتماعية والثقافية لأي مجتمع من المجتمعات وعليه، تعود الخصوصية الثقافية في جزئها الأكبر إلى تاريخها الاجتماعي الخاص باعتبارها نظاما اجتماعيا متطورا، وإنتاجا فكريا ناميا يحمل معه عبر الزمن تصورات، معتقدات وطرائق وأساليب التفكير والاستدلال، خاصة بأفراد مجتمع معين وتعني خصوصية الثقافة في جزئها الآخر التفكير من واقعنا من خلال منظومة مرجعية خاصة تتشكل إحداثياتها الأساسية من محددات تلك الثقافة ومكوناتها، وفي مقدماتها الموروث الثقافي، والمحيط الاجتماعي والنظر إلى المستقبل، بل النظر إلى الإنسان والعالم والكون. وتعني الخصوصية الثقافية صميمية الإنسان، المجتمع المنتج، القيمة الذاتية، ونوعية الحياة المعاشة، وبالخصوصية الثقافية يكتسب كل مجتمع حقه المشروع في أن يكون مختلفا فعند التحدث عن خصوصية مجتمع معين، فذلك يعني في واقع الأمر اختلاف كل ثقافة في المصادر، الروافد وفي الرؤية، المنهج، الأسلوب. القصر له أيضا صيغة في إطار الهوية، بالمعنى القومي أو الثقافي، لا يولد الإنسان وهو مزوّد بها بل يكتسبها (هي مفهوم اجتماعي نفسي يشير إلى إدراك شعب ما لذاته، وكيفية تمايزه عن الآخرين، وهي تستند إلى مسلمات ثقافية عامة مرتبطة تاريخيا بقيمة اجتماعية وسياسية واقتصادية للمجتمع.و الهوية identité مع أن لها معنى واسع، إلا أنها تتضمن الإحساس الذاتي بالوجود المستمر، كم أنها تتضمن إحساسا بالانتماء وبالعضوية، وإدراكا بالارتباط بوجود ثقافي يبدو في أنماط السلوك بحيث يمكن ملاحظته وقياسه من خلال المواقف ،الاتجاهات، ردود الأفعال، حدوث المشاركة، التعاون، التنافس، الصراع وغيرها من صنوف السلوك اعتمادا على أسس عامة لها قدر عالي من الشيوع في المجتمع، وعليه فالهوية هي مجموعة الصفات الجوهرية الثابتة في الأشياء والأحياء،

فللمكان هويته الخاصة كما للإنسان هويته المتفردة من غيره من الناس، ومن ثمّ فإن الثوابت الجغرافية، المتغيرات التاريخية والموروثات الثقافية، عناصر مكوّنة للهوية .و الهوية الثقافية هي الرمز أو القاسم المشترك أو النمط الراسخ الذي يميّز فردا أو مجموعة من الأفراد أو شعبا من الشعوب عم غيره. والهوية هي كلمة المفتاح في هذا البناء هي أساس تشكيل الدولة القومية[12]

القصر اليوم لا يخرج عن مسار العمارة التقليدية، فهو يصنف اليوم ضمن المدن العتيقة ويشهد تحولات عميقة مست جوهره ونمط بناءه بفعل مؤثرات داخلية وخارجية أدت إلى زعزعت ذلك الانسجام الذي تميز به من قبل وأحدث قطيعة بين القديم والحديث مع حركة التاريخ وتعاقب الأحداث فرضت هذه القصور تكيف مع التحولات الحديثة وغيرت من نمطها المعماري وبالتالي من وظائفها، حتى أن بعض القصور أصبحت مهجورة لأسباب قد تتمثل في قدم القصر وبالتالي خطورة العيش فيه وأخرى تتمثل في الميل إلى العيش بحياة أكثر رفاهة وعصرنة ومهما كان فالقصر من حيث تصميمه العمراني وتنظيمه المجالي يعد ثمرة إبداع للإنسان الصحراوي كيّفه حسب المناخ والظروف الطبيعية القاسية بحيث جعل الصحراء موطن للاستيطان، وكان القصر مدينة وظيفية وبيئية بامتياز بتكيفها مع المناخ ومنسجمة مع الوظائف الاجتماعية التي بنيت من أجلها.و عليه فالعمارة عامل مهم في تحليل الحياة الاجتماعية المتعددة حيث يتم منه تحديد نوعية الأنشطة الاقتصادية، العلاقات الاجتماعية، فالتفاعل مع البيئة حدد طبيعة المجتمع ونوع السكن.

وبشكل عام فالبناء الاجتماعي هو علاقة بين الجماعات وليس أفراد، والذي يدخل في تكوينه باعتباره جماعة بنائية هو تلك الجماعات الكبيرة المتماسكة كالعشيرة والقبيلة، والقصور الصحراوية هي مركب لعلامة تراثية في المجتمع مشتركة لدى سكان الجنوب الجزائري[13]، يرى ابن خلدون على الدارس أن يقف على طبائع العمران يقصد بذلك أن الباحث حين يدرس مجتمع من المجتمعات يجب عليه أن يدرس بناءه الاجتماعي وعادات الأفراد والثقافة السائدة في هذا المجتمع، فكل هذه الأمور تمكّن الباحث من الدراسات العلمية الواقعية، ويرى ابن خلدون أن المجتمعات تختلف بعضها عن بعض وفي هذا يقول (إن كل حادث من الحوادث ذاتا كان أم فعلا، لا بد من طبيعة تخصّه في ذاته وفيما يعرض له من أحواله فالمدينة، المجتمع، البادية، الدولة، الفرد، العائلة، كل أولئك ذوات لها طوابع تخصّها من حيث البيئة والوظيفة من حيث ما يطرأ عليها من تغيير. وفي صناعة البناء يقول ابن خلدون فهي أول صناعة العمران الحضري وأقدمها، وهي معرفة العمل في اتخاذ البيوت والمنازل للكنّ والمأوى للأبدان في المدن. وذلك أن الإنسان لما جُبل عليه من الفكر في عواقب أحواله (لا بد له أن يفكر فيما يدفع عنه الأذى الحرّ والبرد، كاتخاذ البيوت المكتنفة بالسقف والحيطان من سائر جهاتها) والبشر مختلفون في هذه الجبلة الفكرية التي هي معنى الإنسانية[14]

وقد وجّه ابن خلدون مزيد عنايته إلى دراسة مظاهر التفاعل بين الإنسان وبين البيئة الطبيعية وهي ما يطلقون عليها في الوقت الحاضر الايكولوجية الإنسانية، وهي إحدى فروع الدراسات الاجتماعية المتصلة بالبيئة الاجتماعية والتي يطلق عليها مصطلح المورفولوجي والتي تعنى بدراسة أشكال التجمعات والوحدات وتوزيعات السكان، وتهتم بدراسة تباين هذه الأشكال والوحدات، وتتبع أثر العوامل الطبيعية في النظم الاجتماعية، فقد أكّد ابن خلدون على أهمية الدراسات حين أراد أن يكتب تاريخ الدولة الإسلامي كتابة تعتمد على الوثائق وعلى الملاحظة والدراسة الموضوعية، غير أنه رأى أن تسبق هذه الكتابة دراسة للبيئة، الحضارة والظروف الاجتماعية التي انبعثت فيها حوادث التاريخ. وحسب ما أكد عليه أن العامل الجغرافي تأثير على المظهر العمراني، وأشكال التجمع الانساني ومختلف الأنشطة، الصنائع والحرف.

من الناحية الانتروبولوجية يعتبر هذا المدخل ضروريا عند دراسة خصائص الحياة الاجتماعية والتقليدية لنظم الأسرة والقرابة، وأشكال التعبير الثقافي وكذا أنواع التجمعات الاجتماعية، وهذا ما يّمكن من دراسة هذه التجمعات كوحدة اجتماعية كلية وكشكل ثقافي متميز، هذا ما أشرنا إليه في الفقرات السابقة، ويساعد على تأثير القيم الاجتماعية والثقافية في تركيب هذا المجتمع. فالعمران الصحراوي بما فيه القصور يحمل من الناحية الاجتماعية دلائل وأبعاد تتمثل في الهوية التي تحدد طبيعة المجتمع، كما يحمل بعدا دينيا فهو يحمل معالم الشخصية الإسلامية والأصالة، وبعد ثقافي يتمثل في ممارسة العادات، التقاليد، الأعراف وكل ما يكتسبه الفرد والجماعة بوصفه عضو في تلك الوحدة البيئية، هذا بالشعور بوحدة الانتماء والشعور بالارتباط .فالقصر يمثل الوحدة القرابية ولكي تنتعش لا بد من تحتويه وحدة ترابية المتمثلة في القصر .فالعمران والأسس العمرانية السليمة هي التي تستمد أصالتها من بيئتها.

الهوامش:

[1] BENDJELID Abed : les territoires sahariens au XXIème siècle (développement, gouvernance et identité. Colloque international le 06.07.2010 au centre national de recherche en Anthropologie Sociale et Culturelle Oran

[2] ABDERRAHMANE Moussaoui : espace et sacré au Sahara (ksour et oasis du sud-ouest algérien, édition CNRS, Paris, 2002, P 24.

[3] André Akoun et Pierre Ansart :dictionnaire de sociologie le Robert Seuil,1999.

[4] Abderrahmane Moussaoui : ibid. P24.

[5] السيد الحسيني: المدينة دراسة في علم الاجتماع الحضري، دار المعرفة، القاهرة 1981، ص 91.

[6] سعيد حساين: العمارة التقليدية إنتاج اجتماعي ثقافي ألف بين الزمان والمكان، مجلة دراسات تراثية (مجلة علمية) العدد الأول 2007 يصدرها مخبر البناء الحضاري للمغرب الأوسط (الجزائر) معهد الآثار جامعة الجزائر. ص 69.

[7] A.Rappoport : pour une anthropologie de la maison, éd Border Paris, 1982,P42.

[8] BOURDIEU .P : esquisse d'une théorie de la pratique précédé de trois études d'anthropologie kabyle, Genève, éd DROZ 1972, P131

[9] نظير أبو عبيد: المشهد المكاني كمفهوم سلوك بيئي في تحليل التواصل ما بين العمارة والمجتمع، مجلة المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، العدد 248، لبنان، 1999، ص 148.

[10] Brahim Benyoucef :le M'Zab espace et société Alger, éd imprimerie D'Aboudaoud 1982 P130.131

[11] Andre(A)et Pierre (A) :dictionnaire de sociologie , le roert seuil, Paris ,1999,P307

[12] Rachid Sidi Boumedine : un enjeu les fondements du patrimoine en Algérie, actes de séminaire des 27.28 Novembre 1996 à Marseille ville et patrimoine, P57

[13] Yael kouzminz : dynamiques et mutations territoriales du Sahara algérien vers de nouvelles approches fondées l'observation ,17.12.2007, université Franche-Comté France 198

[14] عبد الرحمان ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون المسمى (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تامجلد الأول، منشورات محمد علي بيوض، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، 1992. ص433.